الفصل الثالث

توظيف التراث الأدبي

الفصل الثالث
توظيف التراث الأدبي

يتمثل هذا النمط من الحوارية في انفتاح روايات ديمة السمان على غيرها من النصوص الأدبية، الشعرية والنثرية، إلى جانب إيراد أقوال لأدباء وفلاسفة ومفكرين ومفسرين.

إن بناء حوارية في السياق الأدبي تحتاج إلى روائي مثقف، وهذا ما وجدته في روايات ديمة السمان، إذ كثيرًا ما يتم الاستشهاد بآراء الأدباء والفنانين والفلاسفة على لسان شخصيات الرواية المثقفة ما يعطي الرواية عمقًا كبيرًا، ويطرح أمام المتلقي آراء يجد نفسه شريكًا فيها.

وظفت الكاتبة الحوارية النصية، لتخدم الفكرة "التكتيكية" التي من شأنها خدمة أفكار الكاتبة الأساسية.

هنا تتناص في روايات ديمة، في بعض جزئيات المحكي فيها، مع نصوص روائية فلسطينية سابقة عليها، فالكاتبة، توظف ثقافتها الأدبية توظيفًا مفيدًا يجعل القارئ يسيح بانسياب بين فضاءات النص.

من الواضح أن الكاتبة متأثرة بشعر الحكمة والموعظة؛ وذلك من خلال توظيفها لشعر إبراهيم الصولي، عندما قالت: "الشدة تزول والفرج يأتي بعد ضيق"([196]).

وقد استوحت هذا المعنى من قول الشاعر: ([197])

كَمُلت فلما استحكمت حلقاتها فُرجت وكان يظنها لا تُفرجُ

وقول الشافعي: ([198])

صبرًا جميلاً ما أقرب الفرجا من راقب الله في الأمور نجَا

من صدَّق الله لم ينله أذى ومن رجاه يكون حيث رجَا

وورد هذا المعنى، أيضًا، في شعر الإمام علي- كرّم الله وجهه-:([199])

([196]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص32؛ تكرر في برج اللقلق، 1/ 183 و 187.

([197]) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، اعتنى بنسخه وتصحيحه د.س. مرجليوث، 1923. 1/ 271؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، حققه إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة. 1/ 46 وقد استبدلت (كَمُلت) بـ (ضاقت).

([198]) الشافعي، الديوان، ديوان شعره، جمعه وحققه وشرحه، أميل بديع يعقوب، بيروت: دار الكتاب العربي، 1425/ 2005. ص61.

إذا النائباتُ بلغنَ المدى وكادت تذوب هُنَّ المُهجْ
وحلَّ البلاءُ وبان العزاءُ فعند التناهي يكونُ الفرجْ

أفادت النص بتوظيف معاني هذه الأبيات الشعرية التي تحث على الصبر والتحمل، فجاء توظيفها بقيمة من القيم الإنسانية، ألا وهي الصبر على الشدائد. وعندما تقول: "وكيف تعرف صديقًا إذا لم تدخل في شدة!!؟"([200])، نجد هذا المعنى مستمدًّا من قول الشافعي:([201])

صديقٌ ليس ينفع يوم بؤسٍ قريبٌ من عدوٍّ في القياسِ
وما يَبْقَى الصَّديقُ بِكلِّ عصرٍ ولا الإخوانُ إلاَّ لِلتَّآسي

استخدمت معاني هذا البيت الشعري الذي فيه الحكمة والتجربة، وفيه أيضًا معاني المواساة للنفس وللآخرين عندما تقع عليهم المصيبة، فيحاولون استثمار مصيبتهم في ما يفيدهم حتى ولو كانت الإفادة هنا معنوية، وقد وفقت الكاتبة في ذلك.

([199]) الإمام علي، ديوانه، قدَّم له وشرحه صلاح الدين الهواري، ط1، بيروت: دار مكتبة الهلال، 2003. ص53.

([200]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص 34.

([201]) الشافعي، ديوان الشافعي، جمعه وحققه وشرحه، أميل بديع يعقوب، بيروت: دار الكتاب العربي، 1425هـ/ 2005م. ص 89.

وظفت الكاتبة ما تناقله الناس عن علاقة الثعلب بالإنسان وما يتصف به الثعلب من مكر ودهاء، وذلك عندما قالت في وصف إحدى شخصيات الرواية : "الحاج زهدي لقمان العجوز الثعلب.."([202]).

أرادت رسم شخصية (الحاج زهدي لقمان) الشريرة، وتحديد طباعها للقارئ فقارنته بالثعلب، حتى تعرفنا بمدى خبثه، ومكره، وبأنه غير جدير بالثقة. ورد هذا المعنى، في كثير من القصائد الشعرية والنصوص النثرية، ومنها قول الشاعر: ([203])

قد سمع الثعلب أهل القرى يدعون محتالاً بيا ثعلب
فقال حقًّا هذه غاية في الفخر لا تؤتى ولا تطلب

جاء وصف الكاتبة لهذه الشخصية وصفًا دقيقًا، بحيث يشعر القارئ أنه أمام شخصية حية تتحرك بلحمها ودمها.

وتجسد الكاتبة قيمة مهمة، وهي الوفاء، وعدم نكران الجميل، عندما قالت على لسان (عياش) في الضلع المفقود: "ولن تكون لي نذالة الجبناء لأكافئ معروفك أنت وجميع أهل أمي بالسيئة.."([204]).

([202]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص 37.

([203]) أحمد شوقي، الشوقيات، بيروت: دار الفكر، (د.ت.).2/ 180.

([204]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص 55.

فقد تعهده جده بالرعاية صغيرًا إلى أن شبَّ، وصلب عوده واشتدَّ، وعندما وقع في حب ابنة (المهراجا)، عرض حياة أهل أمه للخطر، فيؤكد لهم بأن لا يتسبب بأذيتهم، وقد استمدت هذا المعنى من قول للمتنبي:([205])

إذا أنتَ أكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكْتَهُ

وَإنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

وَوَضْعُ النَّدَى في مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالعُلا

مُضِرٌّ كَوضْعِ السَّيْفِ في مَوْضِعِ النَّدَى

كان الحوار الجاري بين (عياش) وجده حول علاقة الأخير ببنت (المهراجا) مركزًا على مدى الخطورة على حياة (عياش) وأقاربه، لدرجة أن العجوز قال له: "احمد الله أن مشكلتك قد انتهت بدمعة فالدمع أرخص من الروح.."([206]).

ورد هذا المعنى في شعر العباس بن الأحنف عندما قال:([207])

([205]) المتنبي، شرح ديوان المتنبي، وضعه عبد الرحمن البرقوني، بيروت: دار الكتاب، 1425/ 2005. 1/ 257.

([206]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص58.

([207]) العباس بن الأحنف، الديوان، بيروت: دار صادر، 1398/ 1978. ص297.

وراضي القلب غضبانِ اللسانِ له خلقان ما يتشابهانِ
هبي دمعي لعيني إن دمعي مطيعكِ يا ظلامُ وقد عصاني
فكيف تجنُّ عينا مستهامٍ بطول بكاهما تتبادرانِ

تبين الكاتبة استحالة العلاقة بين أبناء الفلاحين الفقراء وبنات الإقطاعيين الأغنياء في مجتمع طبقي الفجوة بين أبنائه واسعة جدًّا، مجسدة صورة حقيقية واقعية في مجتمعنا الفلسطيني عمومًا، والمقدسي خصوصًا، فالعائلات المقدسية معروف عنها أنها لا تقبل بمن هو غير مقدسي لخطبة بناتها، وبذلك تنقل لنا الكاتبة صورة حية عن واقع اجتماعي عنصري.

وعندما تفلسف الكاتبة بذكر علاقة العين بالقلب في رؤية الأشياء، وإدراك معانيها في القلب، نجدها تستوحي هذا المعنى من قول قريب للعباس بن الأحنف الذي يفرق بين علاقة القلب والعين: "القلب يحلم كما تحلم العين.. ولكن حلم العين يزول مع اليقظة.. أما حلم القلب فعيونه الخيال الذي يقرب البعيد ويسهل الصعب ويقلب الوهم حقيقة.."([208])، قال العباس في ذلك:([209])

فقَدَتْ عينيَ الحبيبَ فما أخـ وفَني أن تكون أشقى العيونِ

([208]) ديمة السمان،م.س.، ص59.

([209]) العباس بن الأحنف، م.س.، ص295.

ذكرهُ لازمٌ لِقلبي ولا عهـ ـدَ لعيني بوجهه منذُ حينِ

وبهذا أرادت الكاتبة إظهار حالة العشق عند (عيّاش) فكانت موفقة.

وتتكئ الكاتبة في بعض معانيها على أمثلة مستمدة من الشعر كما في قولها: "وهل يصلح العطار ما أفسدَ الدهر"([210]).

ورد هذا القول في قصيدة لصفي الدين الحلي يرثي بها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون([211]) في سنة اثنتين وأربعين وسبع مئة للهجرة والتي مطلعها:([212])

وَفَى لِيَ فيكَ الدمعُ إذ خانني الصبرُ

وأنجد فيكَ النظمُ إذ خُذِل النصرُ

([210]) ديمة السمان، الضلع المفقود، 73.

([211]) محمد بن قلاوون: محمد بن قلاوون بن عبد الله الصالحي، أبو الفتح: من كبار الدولة القلاوونية، له آثار عمرانية ضخمة، وولي سلطنة مصر والشام سنة693هـ، ثم خُلع منها لحداثة سنه، وأعيد للسلطنة بمصر سنة 698هـ، أقام في الكرك فترة ثم رجع إلى مصر وحارب الملك المظفر بيبرس وقتله بيديه فاستعاد عرش مصر، واستمر 32 سنة، فعمَّر عمرانًا كثيرة، توفي بالقاهرة سنة 741هـ. الزركلي، الأعلام، ط17، بيروت: دار العلم للملايين، 2007 7/ 11.

([212]) صفي الدين الحلي، ديوانه، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر و دار صادر للطباعة والنشر، 1382/ 1962. ص377-379.

أما بيت الشعر الذي ورد فيه القول المذكور آنفًا فهو:

ورامُوا بأنواع العقاقير بُرأهُ

وهل يُصلح العطّار ما أفسد الدّهرُ

وظفت هذا الشعر في نصها الروائي توظيفًا ضعيفًا؛ فابتعدت عن مراميه التي لم تتلاءم مع المعنى المقصود في النص الروائي للكاتبة، فالحوار الذي دار بين شخصيتي الرواية (عياش) و(مريم) لا يناسبه استشهاد الكاتبة بعجز البيت المذكور أعلاه.

ويتكرر توظيفها لمعاني شعر العباس بن الأحنف عندما قالت على لسان جد عياش، وقد هدفت الكاتبة إلى إثبات وقع الحب على عياش ومريم، وبأنه لا يمكن إخفاؤه عن الناس، حيث إن العيون تفضح ما في القلب "فالعين لسان ثرثار تفضح المشاعر ولا تجيد إخفاء المشاعر"(213).

ذكر هذا المعنى في البيتين الآتيين:(214)

سأسكتُ كيلا يعلمَ الناسُ منطقي

ونسلَمَ من أهلِ الوشايةِ والظنِّ

---

(213) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص74.

(214) العباس بن الأحنف، الديوان، ص307.

ألا قد جنى طرفي عليَّ بليةً

أعوذ بك اللهمّ من شرّ ما يجني

تريد القول بأن حالة الحب التي تعيشها (عائشة) قد وصلت إلى درجة الهيام بحيث لا تستطيع إخفاء مشاعرها مهما حاولت لأن العيون لا يمكن لها أن تستر هذا الحب.

ونراها تستخدم ألفاظًا مستقاة من شعر الحكمة في قولها: "وأمام العلم يصغر الجهل"[215]. ورد هذا المعنى في قول الشافعي:[216]

رأيتُ العلمَ صاحبهُ كريمٌ ولو ولدته آباءٌ لِئامُ

فلولا العلمُ ما سعدتْ رجالٌ ولا عُرفَ الحلالُ ولا الحرامُ

تبين الكاتبة أهمية العلم ودور العلماء في بناء وخدمة المجتمع، وتحث أصحاب العلم بأن لا يبخلوا على قومهم بعلمهم.

استنبطت من الشعر العربي قولها: "كان هذا الشعر يحاكي الليل في سواده.. كان غزيرًا يصل نهاية ظهري.. ولكن عبثت به يد الزمان وأعطته لونًا أبيض رمز الحكمة.."[217].

---

[215] ديمة السمان، م.س.، ص123.

[216] الإمام الشافعي، ديوانه، ص132.

[217] ديمة السمان، الضلع المفقود، ص125.

وقد ورد هذا المعنى في أبيات شعر قالها الخليفة العباسي المستنجد بالله:([218])

عيرتني بالشيب وهو وقارُ ليتها عيّرت بما هو عارُ
إن يكن شابت الذوائب مني فالليالي تزينها الأقمارُ

تُجيب على لسان أمينة عندما استغرب عيّاش من حكمتها وقد حملت الكثير من الحكمة في رأسها الأشيب، قائلة له بأن لا يغتر ولا ينظر إلى هذا الشيب إلا نظرة تقدير واحترام، لما مرَّت به من تجارب أكسبتها الحكمة وحُسن تقدير للأمور، فكان توظيفها لمعاني الشعر المذكور، توظيفًا حسنًا.

استمدت من التراث الشعري العربي عندما قالت على لسان (أمينة): "ركام بيت آل العطار أحب إليَّ من قصور الدنيا كلها"([219]).

وقد وردت هذه الألفاظ في قول ميسون([220]) بنت بحدل الكلبية زوج معاوية بن أبي سفيان:([221])

([218]) الذهبي، سير أعلام النبلاء، خرَّج آياته وعلَّق عليه واعتنى به نعيم حسين زرزور، صيدا، بيروت: المكتبة العصرية، 1428/ 2007. 4/ 421.

([219]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص277. تكرر ذلك في رواية القافلة ص 112.

([220]) ينظر: الجاحظ، الحيوان، وضع حواشيه محمد باسل عيون السود، ط2، بيروت: دار الكتب العلمية، 1424هـ/ 2003م. 1/ 116؛ الأصفهاني، الأغاني، شرحه وكتب حواشيه عبد أ. علي مهنا،

لبيتٍ تخفق الأرياح فيهِ أحب إليَّ من قصر منيفِ
ولُبس عباءةٍ وتقرَّ عيني أحبُّ إليَّ من لبسِ الشُّفُوفِ

وظفت الكاتبة هذه الألفاظ للتعبير عن مقدار تمسك الشعب الفلسطيني بأرضه وبيته، بعد أن قامت وتقوم سلطات الاحتلال بهدم بيوت الفلسطينيين بحجج مختلفة، وذرائع واهية، وهنا فإن الكاتبة تجسد هذا التمسك، معتمدة على هذا الشعر المعبر عن قيمة الوطن في نفسية الإنسان العربي، وقد نجحت الكاتبة في توصيل فكرتها بطريقة سلسة عندما مزجت الألفاظ بسردها الروائي.

جاءت الكاتبة على ذكر قيس (مجنون ليلى) عندما قالت على لسان (صابر): "وما كان قيس متيمًا أكثر مني"[222]؛ وذلك في رده على زوجته (حسناء) وهي تداعبه بغيرتها عليه، وقصة قيس معروفة بشهرتها حتى أن الناس يستشهدون بها عندما يريدون إظهار مقدار حبهم، وقد وصف والد قيس هذا الحب بقوله: "كان آثر عندي من أولادي جميعًا، وإنه

ط2، بيروت: دار الفكر، (د.ت.). 16/ 47؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، شرحه وضبطه ورتب فهارسه، إبراهيم الأبياري، بيروت: دار الكتاب العربي، (د.ت.). 4/ 357؛ الزركلي، الأعلام، 7/ 339.

[221] ينظر: ابن منظور، لسان العرب، باب (مسن).

[222] ديمة السمان، القافلة، ص 82.

عشق امرأة من قومه لم تكن تطمع في مثله، ولكن أباها زوّجها غيره، ففقد الفتى عقله، فكان لا يلبس ثوبًا إلا خرّقه، وراح يلعب بالتراب عاريًا، وترك الصلاة، فإذا قيل له: ما لك لا تصلي؟ لم يرد حرفًا... وكنا نحبسه ونقيده في بادئ الأمر حتى خشينا عليه، فخلّينا سبيله، وهو الآن يهيم على وجهه."([223]) من أشعاره:([224])

أُحبك يا ليلى وأُفرط في حبي

وتُبدين لي هَجراً على البُعدِ والقربِ

وأهواك يا ليلى هوى لو تنَسّمَتْ

نفوسُ الورى أدناهُ صِحْنَ من الكربِ

شكوت إليها الشوق سرًّا وجهرةً

وبُحْتُ بما ألقاهُ من شدَّة الحبِّ

نلمس في هذه الأبيات مقدار الحب الذي يعتمل في صدر (قيس)، إضافة إلى قصته كما رواها أبوه، باستخدامها هذا التوظيف خلال حوار

([223]) قيس بن الملوح، ديوان مجنون ليلى، قدَّمه وشرحه، مجيد طرَّاد، ط1، بيروت: عالم الكتب، 1416/ 1996 ص8.

([224]) قيس بن الملوح، م.س.، ص47-48.

بين شخصيات الرواية (صابر) و(حسناء) تُخبرنا بحالة العشق بينهما، وامتزج التوظيف مع الحوار الروائي بشكل عفوي.

وظفت الكاتبة ما توارده الشعر العربي بما يتعلق باستخدام الإبل والنوق كمهر لعروس أو كثمن باهظ لخدمة يؤديها أحدهم؛ وذلك عندما قالت على لسان (الكاهنة): "دليل براءة صابر عندي.. لكن الثمن غالٍ يا شيخ... ألف ناقة حلوب يا شيخ"([225]).

فالإبل أثمن ما يملكه البدوي في الصحراء، وقد ورد هذا الطلب في سيرة (عنترة) عندما طلب عمه ألف ناقة عصافيرية مهرًا لـ(عبلة):

"أريد ألف ناقة من النوق العصافير من نوق الملك المنذر بن ماء السماء اللخمي حتى تفتخر بها ابنتي على سائر بنات العرب.."([226])، فذهب وحده إلى أرض الملك المنذر، وهناك تغلبت الكثرة على الشجاعة وقبض عليه وأودع السجن، وقد قال شعرًا حسنًا في هذا الأمر:([227])

طغاني بالريا والمكر عمّي وجار عليَّ في طلب الصداقِ
فخضت بمهجتي بحر المنايا وسرتُ إلى العراق بلا رفاقِ

([225]) ديمة السمان، القافلة، ص68.

([226]) عمر أبو النصر، عنتر بن شداد، 1/ 67.

([227]) عنترة، ديوان عنترة، ص175.

وسُقتُ النوق والرُعيانَ وحدي وعُدْتُ أُجد من نارِ اشتياقي

نلاحظ بأن المطالب تأتي تعجيزية، وصعبة، ولكن شدة حاجة المطلوب منه هي التي تدفعه إلى المخاطر من أجل الحصول على المطلوب، وقد وظفت الكاتبة هذا الأمر الذي استمدته من الشعر العربي وشعر عنترة هنا مثال على ذلك، فكان توظيفها موفقًا، صورت من خلاله صعوبة الحياة الصحراوية وقسوة أهلها على بعضهم، ونجحت بنقل القارئ إلى البيئة الصحراوية بشكل سلس دون تكلف.

استمدت الحكمة من الشعر العربي بقولها: "إذا هبّت رياحك فاغتنمها"(228)، فوظفتها للحث على اغتنام الفرصة التي تتاح، ويشكل هذا القول صدر بيت الشعر الآتي:(229)

إذا هبّت رياحُكَ فاغتنمها فعقبى كلِّ خافِقةٍ سكونُ

ولا تغفلْ عن الإحسانِ فيها فلا تدري السكونُ متى يكونُ

(228) ديمة السمان، القافلة، ص147.

(229) الشافعي، ديوان الإمام الشافعي، 140؛ الراغب الأصبهاني، محاضرات الأدباء، 1/ 174 نُسب إلى شاعر (مجهول)؛ أميل ربيع يعقوب، موسوعة أمثال العرب، 6/ 215. نُسب إلى شاعر (مجهول).

اعتمدت الكاتبة على هذا التوظيف، لإكساب سردها الروائي جمال الحكمة والجدية والموعظة الحسنة، حيث أجادت في توظيفها، وأدخلتنا إلى عمق الفكرة لنعيش مع الرواية حياة أخرى.

ولم تبتعد عن الحكمة، أيضًا، في توظيفها لقول (المتنبي) عندما قالت: "إن هذا القول الذي تنكرينه يا صاحبة السمو أشبه ما يكون بقول الشاعر.. أنا من نظر الأعمى إلى شعري وأسمعت كلماتي من به صمم"(230). هذا الشعر، من قصيدة يعاتب فيها المتنبي (سيف الدولة الحمداني) التي مطلعها:(231)

وأحَرَّ قلباه ممن قلبه شبمُ ومن بجسمي وحالي عنده سقمُ

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمَعَتْ كلماتي من به صممُ

أنام ملء جفوني عن شوارِدِها ويسهر الخلقُ جَرّاها ويختصمُ

وظفت هذا الشعر، محاولة منها في دعم الحوار بين (عناد) و(الأميرة)، إلا أنها لم تكن موفقة بهذا التوظيف، فبيت الشعر هذا من أشهر ما قاله المتنبي، ولكن موضوع الحوار الذي دار بين شخصيات الرواية سابقة

(230) ديمة السمان، الأصابع الخفية، ص62.

(231) المتنبي، شرح ديوان المتنبي، ص290.

الذكر، لم يكن على مستوى هذا الشعر من الإبداع ولم يقترب حتى من مستواه الدلالي.

يتكرر الاستشهاد بشعر الحكمة العربية، بقولها: "يا صاحب الجلالة.. لو قلت لك من أبي وحدثتك عن حسبي ونسبي فهل ستعرفني؟ سأبقى علامة محيرة على جزيرتك يا مولاي.. لا يمحوها سوى عملي."[232].

ورد هذا المعنى في شعر ابن الوردي، عندما قال يوصي ابنه:[233].

لا تقل أصلي وفصلي أبدًا إنما أصل الفتى ما قد حصلْ
إنما الوردُ من الشوك وما ينْبُتُ النرجسُ إلا من بصلْ
قيمة الإنسان ما يُحسنُهُ أكثرَ الإنسانُ منهُ أمْ أقلْ

أرادت إبراز اعتداد الشخصية بنفسها، وأن قيمة الإنسان بعمله لا بحسبه، وهي ترد بذلك على ظاهرة العصبية القبلية الموجودة في مجتمعاتنا العربية، وأظنها قد نجحت في هذا التوظيف.

ولم يغب عن بال الكاتبة توظيف الشعر الفلسطيني عندما قالت:

([232]) ديمة السمان، الأصابع الخفية، ص 67.

([233]) محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، 2/ 229- 232؛ إميل ناصيف، أروع ما قيل من الوصايا، 154؛ حسن نمر دندشي، معجم الأبيات الشهيرة، 172.

"تقولين حب الأرض.. حب الوطن.. الحب هذه الأيام يباع ويشترى.. والوطن تراب أينما سرت تجدينه."([234])

وقد وردت هذه الألفاظ في قصيدة المرحوم إبراهيم طوقان (تفاؤل وأمل)، والتي مطلعها:([235])

كفكف دموعَكَ، ليس ينـ ـفعك البكاء ولا العويل

*

وطن يباع ويشترى وتصيح فليحيا الوطن؟!
لو كنت تبغي خيره لبذلت من دمك الثمن

استعانت الكاتبة بألفاظ الشاعر الفلسطيني الراحل إبراهيم طوقان، تلك الألفاظ التي تعبر عن محبة الإنسان الفلسطيني لأرضه، ومدى تقديره لترابه الطاهر، لكنها جعلت (الضابط الإنجليزي) هو الذي يردد الألفاظ الشعرية لشاعرنا، وكنت أظن بأن (حسناء) والدة الشهداء والأسرى هي التي تعبر عن نبض كل أم فلسطينية عاشت مرحلة المقاومة والنضال عبر سنين المواجهة الطويلة، وليس على لسان ضابط إنجليزي متغطرس، لذلك فقد خرجت الكلمات من فمه معجونة

([234]) ديمة السمان، القافلة، ص 178.

([235]) إبراهيم طوقان، ديوان إبراهيم، ص 20.

بسخرية من بيده السطوة، إلا أن استخدام الكاتبة للألفاظ الشعرية جاء موفقًا بكل الأحوال، وخدم النص الروائي.

كما وظفت الكاتبة الأغنية الشعبية عندما (زغردت حسناء) قائلة: "أويها يا وطن الثوار أطلب.. أتاك عدنان ملفعا بعلم الأحرار.. أويها يا وطن الثوار أطلب.. حمدان وسلطان في الانتظار.. أويها يا وطن الثوار أطلب.. فالروح رخيصة عليك يا أرض السلام."([236])

وقد استمدت الكاتبة كلماتها من الشعر الشعبي الفلسطيني، الذي كان يتغنى ببطولات الثوار، ويمجد الشهداء الأبرار ومثال على ذلك؛ ما جاء في موسوعة الفلكلور الفلسطيني للشاعر الشعبي نوح إبراهيم:([237])

"لأجل حرية وطني/ مات واستشهد ابني([238])

يا ريت إلي ولد ثاني/ حتى أقدمه هدية"

([236]) ديمة السمان، القافلة، ص196.

([237]) نوح إبراهيم: ولد في مدينة حيفا 1913، وتلقى فيها دراسته الابتدائية، تفتحت فيه روح الشاعر الشعبي في سن مبكرة، اعتقلته السلطات البريطانية بسبب قصائده، وحظرت نشر أشعاره في كتاب، التحق بصفوف ثورة عز الدين القسّام، واشترك في معارك جبال الجليل واستشهد في معركة حول قرية طمرة ودفن فيها العام 1937.

– أحمد شاهين، موسوعة كتّاب فلسطين في القرن العشرين، 823.

([238]) نمر سرحان، موسوعة الفلكلور الفلسطيني، ص521.

وقال أيضًا:

"رجال أقسموا يمين/ يضحوا الغالي والثمين

في سبيل فلسطين/ مهما صادفهم أخطار"

لقد استخدمت الكاتبة معاني هذه الأبيات في (زغرودة حسناء أم الشهيد)، أما عن الزغرودة في هذه الحالة، فقد اعتادت بعض أمهات الشهداء من القيام بهذا الفعل، عندما يأتيهن خبر استشهاد أحد أبنائهن وخصوصًا في زمن الانتفاضة الفلسطينية المباركة، حيث كانت تلك الأمهات تعتز بأن أبناءهن من الأبطال المقاومين، إلا أن الغرب لم يفهم هذه المعادلة بين الأم الثكلى وبين الشهيد الذي يضحي بدمه رخيصًا في سبيل رفعة وحرية الوطن؛ نجد الضابط الإنجليزي يخاطب زوجة الشهيد وأم الأسير قائلاً: "إذا كان الوطن غاليًا بهذا القدر.. فلم تسألين عن زوجك؟ لقد ذهب فداء الوطن"(239).

هو لم يفهم تلك العلاقة، فيتحدث بسخرية واستهزاء، وقد أجابته حسناء بحزم أمّ ثابتة هي بمثابة كل أم فلسطينية نشَّأت أبناءها على

---

(239) ديمة السمان، القافلة، ص178.

الاعتزاز بحب الوطن قائلة له: "كي أعدَّ أولادي ليسيروا على درب أبيهم"[240].

وقد استطاعت الكاتبة نقل الصورة الحية لحالة استشهادية، من خلال توظيف الكلمات، والمعاني والسياق الشعري للشعراء الشعبيين.

لقد وظفت الكاتبة معاني الألفاظ الشعرية عندما قالت على لسان (الأميرة): "لأنه كان يحرمك الحب.. لا تلمه يا عناد .. فكيف تنام عين وأنت فيها؟ وكيف يهدأ حب.. وأنت دقات القلب.. والنار أنت مذكيها؟ أنظر إلى عيني تعرف الحقيقة"[241]

ورد هذا المعنى في شعر (ابن حزم) عندما قال في (طوق الحمامة) في باب علامات الحب:[242]

تعلَّمتِ السَّحائِبُ من شُؤُوني فَعَمَّتْ بالحَيَا السَّكْبِ الهَتونِ
وهذا الليلُ فيكَ غدا رفيقي بذلكَ أمْ على سَهري مُعيني
فإنْ لمْ يَنْقضِ الإظلامُ إلا إذا ما أُطبِقَتْ نَومًا جُفُوني

---

[240] ديمة السمان، م.س.، 178.

[241] ديمة السمان، الأصابع الخفية، ص 188.

[242] ابن حزم، طوق الحمامة، شكله وعلق حواشيها وقدم له ووضع فهارسه، نزار وجيه فلُّوح، صيدا، بيروت: المطبعة العصرية، الدار النموذجية، 1429هـ/ 2008م. ص 59.

فليسَ إلى النَّهارِ لنا سبيلُ وسُهدٌ زَائدٌ في كلِّ حينِ
كأن نُجومَهُ والغيمُ يُخفي سَناها عن مُلاحظةِ العُيون

وظفت الكاتبة معاني الآبيات آنفة الذكر، لتبين حالة الحب التي كانت بين (عناد) و(الأميرة)، وقد أجادت في هذا التوظيف ورسمت لنا صورة حية، فكان سردها الروائي وحوار شخصياتها مقنعًا.

كما وظفت الكاتبة معاني أبيات (زهير بن أبي سُلمى) عندما قالت على لسان (عبود): "تتسلى بعواطف من أحبتك يا عبود؟ تقتل من أنقذت حياتك من الموت يا عبود؟ لا يليق بك أكثر من كلمة عيب"(243)

ورد هذا المعنى في معلقة زهير عندما قال:(244)

ومن يجعل المعروف في غير أهله يكن حمده ذمًّا عليه ويندم

وظفت معاني هذه الأبيات لتبين لنا أهمية المحافظة على العهد، وضرورة مقابلة الجميل بالجميل والإحسان بالإحسان، وقد جاء هذا التوظيف على لسان (عناد) الذي أخذ ضميره يؤنبه بسبب تفكيره بالابتعاد عن الفتاة التي أحبته وأنقذت حياته، وهو بدوره فكر بالابتعاد

(243) ديمة السمان، جناح ضاقت به السماء، ص49.

(244) الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص80.

عنها ليكون كما قال الشاعر في بيتي الشعر آنفي الذكر، فأجادت بهذا التوظيف الذي جاء متوافقًا مع الفكرة وملائمًا لمعناها.

وظفت الكاتبة بعضا من ألفاظ (جبران خليل جبران) عندما قالت على لسان (الأب): "فراشك الأرض ولحافك السماء"(245)

وقد ورد هذا اللفظ بمعناه في (قصيدة المواكب):(246)

هل فرشت العشب ليلاً وتلحّفت الفضا

زاهدا فيما سيأتي ناسيًا ما قد مضى

تنقل لنا على لسان والد (عبود) ما تفكر به، بأن حالة الشاب الفلسطيني المقاوم هي حالة خاصة تتحكم بها الظروف الصعبة المحيطة بالثوار، فالزمن يعلم الثوار الخشونة، والصلابة، وشدة التحمل، فينامون على الأرض بلا سرير أو عواطف، وتكون الأرض أحيانًا مفروشة بالقتلى وغارقة بالدماء، وحتى النساء في فلسطين تخلين عن النعومة فلم تعد ملائمة لهنَّ، وهذا تصوير للواقع الفلسطيني، وباستخدام الكاتبة لألفاظ من شعر (جبران) قد أفادت النص.

---

(245) ديمة السمان، م.س.، 133.

(246) جبران خليل جبران، موسوعة جبران خليل جبران العربية، ص342.

وظفت الكاتبة الألفاظ التي تحمل في طياتها الدلالات والمعاني الشعرية عندما قالت على لسان (الأستاذ حيدر): "فلا بد لليل من آخر"[247].

وقد ورد معنى هذا اللفظ في شعر أبي القاسم الشابي عندما قال:[248]

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بدَّ أن يستجيب القدرْ

ولا بدَّ لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسرْ

خلال هذا التوظيف تظهر الدرجة العالية من استعداد المثقف العربي والفلسطيني لدعم "ثورة" الحسين بن علي على الأتراك، وهو مثال حي على حماسة الشباب العربي في ذلك الزمن في مواجهة الظلم والطغيان، فتصور المعاناة الشديدة التي كانت تعانيها الشعوب العربية الإسلامية من ضغوطات الحكومة التركية، إلا إن الإنسان البسيط كان مدركًا بفطرته الساذجة عمق الصراع؛ وذلك يتمثل بما قالته الكاتبة على لسان (عبد الجبار): "إن هذا القول تحريض للمسلم على المسلم"[249]،

---

[247] ديمة السمان، برج اللقلق، 1/ 161.

[248] أبو القاسم الشابي، ديوان أبي القاسم الشابي أغاني الحياة، شرحه وضبط نصوصه وقدَّم له عمر فاروق الطَّباع، بيروت: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، (د.ت.). 77.

[249] ديمة السمان، برج اللقلق، 1/ 161.

والبعض كان خائفًا من الوقوع بالإثم من معاداة المسلمين بعضهم لبعض، خصوصًا عندما قال أحدهم: "وإذا كان الله يؤخر الحساب إلى يوم القيامة"([250]).

ورد هذا اللفظ في شعر زهير بن أبي سُلمى:([251])

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينقم

كان للاندفاع الحماسي الأثر الأعظم في هزيمة الأمة العربية من خلال كسر القوة التركية من الداخل العربي، عن طريق ما يسمى بالثورة العربية الكبرى، لقد استفاد النص الروائي من هذا الحوار ومن التوظيف للألفاظ الشعرية سالفة الذكر، وجعلت من النص الروائي وثيقة علمية نتعلم من خلالها ما كان يدور على الساحة العربية من مؤامرات استعمارية مدروسة بعناية فائقة.

تشير الكاتبة إلى حالة الشؤم التي سادت على الرغم من دخول الجيوش العربية إلى فلسطين بعد انتهاء الانتداب البريطاني عندما تقول

([250]) ديمة السمان، م.ن.، 1/ 162.

([251]) الأعلم الشنتمري، أشعار الشعراء الستة الجاهليين، بيروت: دار الفكر، 1411/ 1990، 1/ 275.

على لسان (أبو رعد): "ليس عندي من جواب سوى قول الشاعر هذا.. ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً.. والأيام بيننا يا أبا الطاهر ."([252])

وقد ورد هذا الشعر في معلقة طرفة بن العبد إذ يقول:([253])

ستُبدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً

ويأتيك بالأخبارِ مَنْ لم تُزوِّدِ

ويأتيك بالأخبارِ مَنْ لم تَبعْ له

بتاتًا ولم تضرِب له وقتَ موعِدِ

وقد وظفت الكاتبة هذا الشعر لتبين لنا ضيق الناس مما يحدث على الأرض الفلسطينية آنذاك، فعززت فكرتها بهذا التوظيف الذي أثرى النص اللغوي ومكن المتلقي من استحضار الصورة التي تشبه كثيرًا الحالة السياسية في وقتنا الراهن، تلك الحالة التي لا تفاؤل فيها...

ضمَّنت الكاتبة في سردها الروائي شعر (المتنبي) عندما قالت على لسان (أبو عبد الجبار): "والشاعر يقول: لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى.. حتى يراق على جوانبه الدم"([254]).

([252]) ديمة السمان، برج اللقلق، 2/ 6.

([253]) طرفة بن العبد، ديوان طرفة بن العبد، شرحه وضبط نصوصه وقدَّم له عمر فاروق الطبَّاع، بيروت: دار القلم (د.ت.)، 43

وقد ورد هذا البيت الشعري ضمن قصيدة للمتنبي:([255])

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى

حتى يُراق على جوانبِهِ الدَّمُ

استخدمت الكاتبة هذا الشعر لتبين مقدار الخوف الذي اعترى الناس عندما تناهى إلى مسامعهم بأن اليهود قد سيطروا على المدينة، واحتمال اقتحام البيوت ؛ الأمر الذي من الممكن أن يعرض شرف الناس للخطر، وأن يجلب لهم ذلك العار إذا ما تعرض جنود اليهود إلى نسائهم، ما دفع بالرجال للتفكير بالتخلص من النساء حفاظًا على الكرامة والشرف بحسب المعنى الظاهر للنص، لكنها ذكرت ذلك استهجانًا وليس استحسانًا وتأييدًا للفكرة، خصوصًا وأنها وضعت الأم كأول امرأة توضع على ذلك المحك، فمن باستطاعته أن يقتل أمه؟! أظن لا أحد بإمكانه فعل هذا الأمر مهما كانت الأسباب، وهنا نجد نقدًا واضحًا للمجتمع الذي يحمل مثل هذه الأفكار المتخلفة، وقد وُفقت الكاتبة في توظيف هذا الشعر الذي خدم الفكرة وعزز السرد الفني للنص الروائي.

([254]) ديمة السمان، برج اللقلق، 2/ 38.

([255]) المتنبي، شرح ديوان المتنبي، 2/ 396.

تطرقت الكاتبة لذكر هالة السلطان، ونفوذه، وسطوته ، وهي إشارة إلى الطمع الذي يتحكم في نفسية بعض القيادات عندما يصلون إلى سدة الحكم، ما يؤدي إلى تنافس شديد بين أصحاب النفوذ على السلطة، لا لخدمة المجتمع، ولكن للتمتع بمزايا السلطة ومكاسبها، بقولها: "إنك لم تتعرف على السلطان وهالة الحكم حتى تعرف إلى أي مدى يمكن أن تصل بالحكم"([256]).

وتعريف السلطان كما ورد في العقد الفريد: "السلطان زمام الأمور، ونظام الحقوق، وقوام الحدود، والقطب الذي عليه مدار الدنيا، وهو حمى الله في بلاده، وظله الممدود على عباده، به يمتنع حريمهم، وينتصر مظلومهم، وينقمع ظالمهم، ويأمن خائفهم."([257]).

وظفت الكاتبة المعاني المستفادة من قصة "اللبؤة والإسوار والشغبر" وهي من قصص "كليلة ودمنة"، عندما قالت: "حكمت على نفسك بالموت يا قوي العضل صغير العقل.. فالذي أباح لك الدفاع عن

([256]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص142.

([257]) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، 1/ 20.

زوجتك وأشبالك يبيح لها الدفاع عن زوجها وأطفالها.. وماذا تفعل أيها المسكين إذا كانت حماية أسرتها هي سرّ يكمن في أنيابها؟"([258]).

وقد ورد هذا النص في كتاب كليلة ودمنة : "قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل، فاضرب لي مثلاً في شأن من يدع ضر غيره إذا قدر عليه لما يصيبه من الضر، ويكون له فيما ينزل به واعظ وزاجر عن ارتكاب الظلم والعداوة لغيره."([259]).

أرادت القول؛ بأن الوسائل جميعها مباحة في الدفاع عن النفس والأسرة والمجتمع، بل إنها تشير إلى حق الشعب الفلسطيني في مقاومة الاحتلال باستخدام شتى الوسائل الممكنة، فمقاومة الاحتلال ضرورة حتمية لشعب فلسطين، حتى يحقق آماله وأحلامه في الحرية والاستقلال، فجاء التوظيف مناسبًا، وحقق الهدف المرجو منه.

تحدثت الكاتبة عن الحب، على لسان (صابر) في حواره مع (عبدون) ساعة النزال بينهما: "أن تعيش على الحب خير من أن تموت دونه.."([260]). وجدتُ هذا المعنى في طوق الحمامة: "محبة العشق الصحيح المتمكن من

([258]) ديمة السمان، م.س.، ص238.

([259]) بيدبا، كليلة ودمنة، 306.

([260]) ديمة السمان، القافلة، ص52.

النفس، هي التي لا فناء لها إلا بالموت، وإنك لتجد الإنسان السالي بزعمه، وإذا السن المتناهية، إذا ذكَّرته تذكَّر وارتاح وصبا، واعتاده الطرب واهتاج له الحنين."([261]).

وظفت الكاتبة هذا المفهوم مستمدة ذلك مما ورد في طوق الحمامة، للتعبير عن أهمية الحب وما يفعله في الإنسان، لدرجة أن المحب على استعداد لتقديم حياته في سبيل من يحب، وهي، أي الكاتبة، تريد بهذا التوظيف تصوير حالة (صابر)، والمواجهة بينه وبين (عبدون) الشخصية الشريرة، الذي تسبب بكثير من الإزعاج لقبيلة (حسناء) ابنة (الشيخ صالح)، فنجحت في بلوغ الغاية من هذا الاستخدام، وعززت نصها بما يلمس مشاعر القارئ، ووفر عنصر التشويق.

استخدمت الكاتبة اسم قيس بن الملوح قائلة على لسان (عبدون):

"يبدو أن الرجل غريب ديار.. فهل يجهل حب أهل الصحراء.. ألم تسمع "بالمجنون" قيس وليلى.. وعنترة ولبنى؟"([262]).

وظفت الكاتبة أسماء بعض المحبين عند العرب، قيس بن الملوح حبيبته ليلى، وعنترة وحبيبته عبلة، لكنها ذكرت بالخطأ اسمًا غير صحيح

([261]) ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والأُلاف، ص50.

([262]) ديمة السمان، القافلة، 52؛ وقد تكرر هذا التوظيف في صفحة 184، مستخدمة اللفظ نفسه.

لحبيبة عنترة، فقد ذكرت أنها (لبنى) بينما الصحيح هو (عبلة)[263]، فلم تتوخ الدقة هنا، أما مجنون ليلى، فهو قيس بن الملوح بن مزاحم بن عُدس بن ربيعة[264]، وأرادت بهذا التوظيف إظهار بأن الصحراء كامنة بقصص المحبين الذين يُذكرون عبر التاريخ، وأن هذا من صفات أهل الصحراء، فالحب عندهم عميق عمق التاريخ، فنجحت في هذا التوظيف على الرغم من أنها لم تتوخ الدقة في ذكر بعض الأسماء.

وظفت الكاتبة الحكمة والموعظة في سردها الروائي عندما قالت على لسان (القبطان): "يا ولدي لا تحزن.. فيوم لك ويوم عليك.. هكذا الدنيا.. والأيام أمامك"[265].

فعززت سردها الروائي باستخدام الحكمة والموعظة، كما وردت في قول الإمام علي- كرم الله وجهه: "والدهر يومان: يوم لك، ويوم عليك، فإذا كان لك فلا تُبطر، وإذا كان عليك فاصبر."[266]، واستطاعت إضفاء جوٍّ من الهدوء المصاحب لفضاء الحكمة، والنصيحة، والحث على الصبر، والتحمل، والتكيّف، فأجادت بهذا الاستخدام الذي انسجم مع النسيج

---

[263] ينظر:عنترة، ديوان عنترة، ص8.

[264] أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، 2/ 3.

[265] ديمة السمان، الأصابع الخفية، ص5.

[266] علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، ص397.

الروائي، لدرجة أن القارئ لم يميز بسهولة هذا التماهي مابين النص والتوظيف النثري.

وظفت الكاتبة ما ورد عن الخليفة عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- عندما قالت على لسان (عناد): "فاحذروا.. وعلموا أولادكم فنون القتال حتى لا تكونوا عبيدًا أذلاء يستبد بكم الغزاة.."[267].

ورد هذا القول في عبقرية عمر: "كان يصارع في المواسم ويسابق على الخيل، وكان ينوط مجد العرب بالرياضة والفروسية ويكتب إلى الأمصار أن "علّموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن الشعر، ولا يفتأ يذكرهم أنه، لن تخور قوى ما دام صاحبها ينزع وينزو، أي يرمي بالقوس ويركب ظهور الخيل بغير ركاب"[268].

تبين الكاتبة أهمية إعداد الإنسان لمواجهة المخاطر، وتصور ضعف أهل تلك (الجزيرة)، وهي هنا تستخدم الرمز، فالجزيرة هي المعادل الموضوعي لفلسطين، التي ترزح تحت الاحتلال، إلا أن شعب فلسطين لا يعطي قضية الإعداد حقها كما يجب. أرى أن الكاتبة وظفت هذا القول بطريقة مفيدة ارتقت بمستوى نصها.

([267]) ديمة السمان، م.س.، ص162.

([268]) عباس العقاد، عبقرية عمر، ص195.

وظفت الكاتبة اللفظ العربي المستمد من خطب العرب، عندما قالت على لسان (الخال): " فما فات مات"([269]).

استمدت هذا اللفظ من خطبة قس بن ساعدة الأيادي عندما قال: "أيها الناس: اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت، ليلٌ داج، ونهار ساج، وسماءٌ ذات أبراج ونجوم تزهر، وبحار تزخر"([270]).

استعانت بالحكمة التي من شأنها وعظ (عناد)، وحثه على التمسك بوعده بهذا التوظيف دعّمت فكرتها من جهة، و أثرت السرد الروائي.

وظفت الكاتبة الموروث القيَمي المستمد من التاريخ العربي الاجتماعي المتصل بسلوك المجتمع والفرد، خصوصًا ما يتعلق بالكرم، قولها: "فهل أكرم بطعامي ومائي.. وأخاطر بحياتي.. والكرم العربي؟؟ اتركيه لحاتم([271]) الطائي"([272]).

([269]) ديمة السمان، الأصابع الخفية، ص181.

([270]) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة، 1/ 35.

([271])حاتم الطائي: هو حاتم بن عبد الله بن حشرج بن طيء وكانت أمه غنية ومن أسخى الناس وأقراهم للضيف، وكان حاتم من شعراء العرب وكانت بنته سفانة أيضًا سخية يعطيها أبوها الإبل فتعطيها للناس، فقال لها حاتم: "يا بنية إن القرينين إذا اجتمعا في المال أتلفاه، فإما أن أعطي وتمسكي، أو أمسك وتعطي. وكان حاتم من شعراء العرب، وكان جوادًا، يصدق قوله فعله، وشجاعًا إذا قاتل

وظفت الكاتبة ما جاء في كليلة ودمنة عندما قالت على لسان (حمدان): "الثعلب صغير يا عمي.. لكنه يسخر من أسد الغاب.."[273]. لكن الذي سخر من الأسد هو الأرنب، الذي صرع بذكائه الأسد، فقد قال دمنة: "إن الثور لكما ذكرت في قوته ورأيه ولكنه مقرٌّ لي بالفضل، وأنا خليق أن أصرعه كما صَرَعتِ الأرنبُ الأسدَ."[274]

استخدمت هذا التوظيف على لسان (حمدان)، لإعطاء فكرة للقارئ عن هذه الشخصية التي عبَّرت عن نفسها بهذا اللفظ، لتقول بأن حمدان رجل غير سوي، خبيث أناني، فساعد على رسم ملامح وسلوك هذه الشخصية الشريرة، فوظّفته بذكاء، عندما ربطت بين الخبث والمكر (وهي صفات الثعلب) وبين القوة والسيطرة والإقدام (وهي صفات الأسد)، أي أن (حمدان) يدَّعي أنه يملك القوة والمكر، وهي مقاييس السيطرة والفهلوة في هذا الزمن.

غلب، وإذا سُئل وهب، كان في شهر رجب يذبح كل يوم عشرًا من الإبل فيطعم الناس. ينظر: أبا الفرج الأصفهاني، الأغاني، 17/ 363-366.

(273) ديمة السمان، جناح ضاقت به السماء، ص34.

(273) ديمة السمان، م.ن.، ص35.

(274) بيدبا الفيلسوف الهندي، كليلة ودمنة، ص77.

استخدمت الكاتبة ما تناقله الأدب العربي عن لغة العيون عندما قالت: "أنا لا أصدق إلا لغة العيون".[275] فللعيون لغة ولإشارات العيون معان مختلفة، فقد وصف ذلك (ابن حزم) في (طوق الحمامة) عندما قال: "الإشارة بلحظ العين؛ يقطع به، ويوعد، ويهدد، ويوصل، ويبسط ويحزن؛ فالإشارة بمؤخر العين الواحدة: نهي عن الأمر؛ وتفتيرها إعلام بالقبول، وإدامة نظرها: دليل على التوجع والأسف؛ وكسر نظرها؛ آية الفرح؛ والإشارة إلى إطباقها دليل على التهديد؛ وقلب الحدقة إلى جهة ثم صرفها بسرعة: تنبيه على مشار إليه... واعلم أن العين تنوب عن الرسل، ويدرك بها المراد، والحواس الأربع أبواب إلى القلب ومنافذ نحو النفس؛ والعين أبلغها وأصحها دلالة وأوعاها عملاً، وهي رائد النفس الصادق، ودليلها الهادي، ومرآتها المجلوة التي تقف على الحقائق..."[276]

اعتبرت الكاتبة أن العين مرآة القلب، تعبِّر عن مكنونات الصدر، وبأنها لا تكذب، ولا يستطيع الشخص إخفاء سرّه بشكل كامل لأنها تشي بما يشعر به القلب.

---

[275] ديمة السمان، جناح ضاقت به السماء، ص79.

[276] ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، ص83.

أصابت الكاتبة بقولها هذا، ووافق كلامها ما ورد في طوق الحمامة، فجاء توظيفها مناسبًا لموضوع الحوار بين (عناد) و(نفوذ)، ونقلت لنا من خلال ذلك الحوار صورة ملونة حقيقية للعلاقة التي نشأت بين المتحابين، والتي نسجت مجمل روايتها على مؤثرات تلك العلاقة.